من أجل أطفالنا ارفعوا الستار

زينب عبد المنعم — سميحة ادريس
ابتهال غبيش — اعتماد عبد العزيز

ربما يمشي على أربع أو ثلاث أو اثنين ولكنه يملك أغلى كنوز الدنيا.. الخيال.. إنه الطفل.. ولذا يعتقد أنه يستطيع كل شيء.. ويعرف كل شيء.. وعندما أكد العلماء أن الدراما هي أفضل وسيلة لاستغلال خيال الطفل.. ظهرت في أنحاء العالم مدارس درامية حديثة ومتجددة، وأخيرا وقف المخرج السينمائي العالمي ماكلارين على المسرح ليؤدي دورا صغيرا للأطفال مدته خمس دقائق، ويخرج على أطفالهم: أغمضوا عيونكم وأنصتوا جيدا فأنتم الآن تروح الفح يسبح تحت الشمس!!

والطفل عندما عادة يشاهد أفلام الكبار وكلها تناقش قضايا الحب والزواج والجنس والعنف. والطفل ليس في حاجة لمثل هذه الموضوعات لأنه لا يفكر في الحب ولا الزواج ولا يفكر في الرقص والفهر كالكبار.

وهذه الأفلام - كما يقول د. محمد شعلان أستاذ الطب النفسي بجامعة الأزهر - تفتح شهية الطفل لأشياء ليس حاجة لإشباعها. فهي تثيره عاطفيا ووجدانيا وجنسيا بما امكانياته النفسية والجسدية لا ترقه لأن تتقبل هذا الإشباع. فالطفل يثار وهو غير قادر على الإشباع فيصاب بالإحباط.

وكل طفل داخله شحنات انفعالية تعرض لإثارات خارجية قد يرتبط الغضب ولا فوراً.. وقد يلمسها ويختلف من حديثها.. ولذلك نجد أن بعض القصص مثل أوديب وسندريلا لها الأطفال عبر العصور لأنها - والحديث مازال للدكتور شعلان - تعكس صراعات نفسية وأسرية عند الطفل صعوبة في التعبير عنها مباشرة على مستوى الواقع.. وعندما يراها من خلال عمل درامي تكون فرصة للتعبير عما يشبه من شحنات انفعالية حقيقية

ست الحسن والشاطر حسن

حدوتة الشاطر حسن وست الحسن من أحب الموضوعات إلى الطفل فهو يتخيل نفسه أنه كبر وأصبح رجلا واستطاع أن يتزوج ست الحسن وينقذها من الرجل الشرير. وكل ما يستوحى من القصص الكلاسيكية القديمة يعجب الطفل، وهي تشبعه وجدانيا ويستطيع من خلالها أن يفرغ فيها انفعالاته بعكس ما يشاهده الطفل الآن في قصص الحب المثيرة. التي توجد فيها نماذج للحب والعشق والخيانة والقتل والعنف. فهي كلها غير بناءة. لكن من الممكن أن نقدم له قصص الحب بطريقة بناءة تمكنه من مواجهة الواقع والتكيف معه.

وعندما سألت الدكتور محمد شعلان عن العيبات وهل هي مفضلة في دراما الأطفال. قال:

الطفل عادة يميل إلى العيبات. فهو يحس نفسه أنه يقدر على كل شيء، فيخرج خليط من الإحساس بالقوة الهائلة والقصص الهائل. فلا يستطيع الكبير من مظاهر قوته ومظاهر ضعفه. فلا أرى شيئا لتحويل أي سالة قويا. ولكن من مظاهر ضعفه أنه لا يستطيع القيام ببعض الأفعال فيشبعها على مستوى التخيل. وهذه الطريقة قد تؤدي إلى التطور. ومحاولة إعادة صياغة المواضيع الكلاسيكية بشكل جديد تجعله يستطيع أن يعيش الواقع ويتكيف معه.

والتراث الشعبي لدينا مليء بمثل هذه المواضيع مثل الشاطر حسن وألف ليلة وليلة. و... العالمي مثل سندريلا... الدنماركي أندرسون الذي ... للطفل. والفترة من ٣ إلى ٦ سنوا...

أن يعلم فيها الطفل التعامل مع الآخرين ويكتشف العالم الخارجي ، ويكون منطلقا في التعبير عن انفعالاته ومشاعره . ورغبة الطفل في هذه المرحلة هي الاستحواذ والتملك والتنافس واللعبة والقصص الخيالية وقصص الحيوان .

وفي مرحلة العمر اللاحقة يهتم الطفل باكتساب المهارات والقدرات الأساسية على مستوى الحس والحركة ، ابتداء من تعلم الرياضة البدنية والموسيقى والكتابة والقراءة إلى معلومات عن العالم الذي يعيش فيه . ويرحل الطفل في هذه المرحلة إلى الإبداع وعناء يضيع طاقته في التعلم واكتساب مهارات جديدة . والمفروض أن ترضي فضول الطفل في هذه المرحلة بأفلام التكنولوجيا والأفلام التي تتحدث عن الطبيعة والعلوم والحضارات والموضوعات التاريخية .

• • •

في كل عام ينتج في ألمانيا ١٠٠ فيلم للأطفال تتراوح أطوالها بين عشر دقائق و٣٠ دقيقة ، منها أفلام كرتون وعرائس وأفلام يقوم بتمثيلها الصغار والكبار . والشيء المؤسف أن هيئة السينما بمصر التي كانت في يوم ما مسيطرة على الإنتاج السينمائي ، تضم قسما خاصا لإنتاج الأفلام الوثائقية والأفلام القصيرة . ولا تضم قسما لدراما الأطفال بينما نجد الاهتمام بدراما الطفل في ألمانيا وصل إلى درجة أنهم في مسرح الطفل يختارون المخرجين عن طريق امتحان دقيق جدا لمعرفة ثقافتهم عن الطفل ومدى اهتماماتهم بدراما الأطفال .

من المخرجين المصريين الذين عاشوا وقتا غير قصير في الخارج الدكتور عبد الوهاب منير . يقول عن أفلام الأطفال إنه لكي نعمل فيلما ليعرض على الأطفال سواء من خلال التليفزيون أو السينما ، يجب أن نتناول مشاكل الأطفال من خلال حدوتة جميلة تتفق مع عقليتهم . هذا بالإضافة إلى الدراسة الواعية للمواقف الدرامية . والموسيقى المصاحبة لدراما الأطفال لابد أن يقوم بتأليفها موسيقيون يشعرون بالطفل ومشاكله . ويضع المؤلف نفسه مكان الطفل الذي سيسمعها .

ويعتبر الفنان الراحل محمد فوزي أفضل من غنى للأطفال ولو أنه في أول تجربة غنائية للأطفال . اعتمد على أغنية ألمانية وهي : ماما زمانها جاية .

والأطفال من سن ٣ إلى ٧ سنوات يحتاجون إلى نوعية خاصة من أفلام الكرتون والعرائس . أما الأطفال من ٧ إلى ١٤ سنة فيحتاجون إلى الأفلام الدرامية التي يقوم بالتمثيل فيها الكبار والصغار .

ولكننا نجد أن هذا مفتقد في الحفلات التي تقدمها سينما مترو . فالأفلام تعرض على جميع نوعيات الأطفال وأعمارهم المختلفة ، بينما لابد أن يكون هناك عرض لأعمار معينة مثلما يحدث في انكلترا ، فتجدهم يعلنون عن الأفلام والأعمار التي تتناسب معها . فلماذا لا تعمم حفلات الأطفال في جميع دور العرض المصرية ، وتعلن كل دار عرض عن الأفلام التي تعرض والأعمار التي تناسبها ؟

ولم يفتنا أن نسأل المخرج السينمائي الكبير صلاح أبو سيف لماذا لم يقدم أفلاما للأطفال ؟

فيؤكد أنه حاول أكثر من مرة عمل فيلم للأطفال . ولكن لم تواته الظروف . فقد اتفق مع الأستاذ جمال أبو ريا الذي يكتب للأطفال على عمل سيناريو فيلم للأطفال ليقدم خلال العام الدولي للطفل . لكنه لم يحصل على النص بعد . وحضر الفنان صلاح أبو سيف مؤتمر قوت السينما الذي عقد في تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٧٥ . واشتركت فيه ٢٦ دولة . وكان من ضمن توصيات المؤتمر أن تقوم كل دولة بعمل فيلم للأطفال مدته ٢٥ دقيقة على أن تقدم كل دولة نسخة من الفيلم إلى هيئة المؤتمر . وبالتالي تستطيع كل دولة أن تأخذ نسخة من الأفلام الأخرى . وعندما أرسل المسئولون في التليفزيون عن هذه التوصيات لم يستجب أحد . أما الدول الباقية فقد أتمت مشروعاتها . وهو يقول :

إنني أوجه اللوم بعدم العناية بأفلام الأطفال للمسئولين في وزارة الثقافة وفي هيئة السينما . فأي منتج يهمه بالدرجة الأولى الكسب بغض النظر عن المحتوى . ولذلك فهناك صعوبة شديدة في أن يتولى القطاع الخاص إنتاج أفلام للأطفال على أنني أرى أن تكون هناك مجموعة تخصص بتقويم سلوك الطفل من خلال السينما والتليفزيون والمسرح . وإلا فكيف نكون مجتمعا سليما ونحن نقدم للطفل نفس الأفلام التي نقدمها للكبار ؟

• • •

سينما مترو هي الدار الوحيدة في مصر التي تقدم حفلات خاصة للأطفال منذ عام ١٩٥٠ . ويتحدث عن هذه التجربة مدير السينما جورج توما فيقول :

هذه الحفلات كانت تقام كل يوم أحد حيث كانت أغلب المدارس عطلتها الأسبوعية في ذلك اليوم . ولكن بعد ذلك أصبحنا نقدم هذه الحفلات يومي الأحد والجمعة . والهدف منها إعطاء الطفل فرصة ليذهب إلى السينما ويرى الفيلم المناسب . فالطفل لا يستطيع الجلوس أمام الشاشة لرؤية فيلم مدته ساعة أو ساعتان . فليست لديه قوة الاحتمال . وقد راعينا ذلك في حفلاتنا حيث نقدم ٦ أفلام قصيرة كرتون مدة كل فيلم ٧ دقائق . وهذا الكرتون يتناسب مع وجميع الأعمار سواء الصغار أو الكبار . وقد حاولنا قبل ذلك تقديم أفلام طويلة للأطفال مثل طرزان ولوريل وهاردي . ولكن الأطفال لم يستوعبوها ولم يتحملوها . وكانوا يتركوا السينما ويلعبون بالخارج . ولذلك لم نكرر هذه المحاولة مرة أخرى . كما أن هذه النوعية من الأفلام لم تعد تجارية .

ولكن من الملاحظ أن الإقبال على حفلات الأطفال قد انخفض جدا عما كان عليه من قبل . حيث كانت السينما دائما (كومبليت) وتضم حوالي ١٥٠٠ طفل نقدم لهم الهدايا ونحتفل بأعياد ميلادهم . أما الآن فالعدد لا يتعدى ٦٠٠ طفل . وهذا يرجع أيضا إلى أزمة المواصلات . فقد كانت المدارس الخاصة تقوم برحلات إلى السينما . ولكن الآن بسبب المواصلات توقفت هذه الرحلات لأن المشرفات يجدن صعوبة في الذهاب بالأطفال إلى السينما والعودة منها .

الأميرة «كومبليت» !

إن كل ما يقال عن أن أفلام الأطفال غير مربحة ولذلك ابتعد عنها المنتجون . هذا الكلام ليس له أي أساس من الصحة إلا الخوف من خوض التجربة والجهل الشديد بمدى تطور المجتمع المصري وحرص الآباء على توفير قدر كبير من التسلية والثقافة لأطفالهم . بل نستطيع أن نقول :

أن هذا النوع من الأفلام من الممكن أن تحقق أرباحا خيالية لأن الساحة خالية تماما . وهناك تعطش شديد لأفلام الأطفال في مصر والدول العربية كلها . والدليل على ذلك أن فيلم «الأميرة والأقزام السبعة» الذي عرض في ربيع ١٩٧٨ وهو أول فيلم للأطفال يعرض في القاهرة باللغة العربية كان الإقبال عليه شديدا جدا . (كانت معظم الحفلات «كومبليت» . ونظرا لأهمية هذا الحدث في عالم السينما كأول فيلم أطفال يدبلج إلى العربية ، حضر حفل الافتتاح عصام جاهين نائب رئيس مجلس إدارة شركة والت ديزني . ونظرا للنجاح الذي حققه الفيلم قام عصام رايك القاهرة وعقد اتفاق دبلجة جميع الأفلام الموسيقية العائلية لشركة والت ديزني .

فلماذا لا نقوم بعمل أفلام للأطفال ؟ وخاصة أن لدينا من تراثنا وتاريخنا ذخيرة لا تنتهي من الموضوعات . وأمامنا أيضا تجارب مختلف بلاد العالم التي خطت خطوات واسعة في هذا الميدان .

ففي خلال المهرجان الثالث لسينما الأطفال الذي عرض بمصر خلال الصيف قدم ٦٨ فيلما من ٢٨ دولة . ومعظم هذه الأفلام تتناسب مع طبيعة الطفل حيث تتراوح مدة العرض بين ٤ دقائق و٢٠ دقيقة . وذلك لأن الطفل بطبعه كثير الملل ومعظمها أيضا لا يعتمد على فكرة القدر في الحدوتة بينما يهم حياة الطفل ويعبر عن أحلامه وخياله الواسع . ويقوم بشرح بعض هذه الأفلام لنا أحمد بلبل مدير مجمع الفنون . فيقول إنه في الفيلم الكندي يقدم المخرج محاورة بين منطق الآلة والمنطق الإنساني . والذي مثل الفيلم المخرج نفسه «ماكلارن» وهو مخرج عالمي حائز على جائزة الأوسكار لكنه لم يخجل من أن يقف على خشبة المسرح ٥ دقائق فقط لتمثيل فيلما للأطفال .

• أميرة القمر : فيلم ياباني عن أسطورة شعبية

تقول ان الأميرة الجميلة موجودة للقصر . وهناك مهلة مدة شهر واحد يكون للأميرة فيها الحق في اختيار أحد الأشخاص زوجا لها وإلا فسوف يعود إلى القصر . وتأتى وفود الشبان تخطب ود الأميرة . ولكنها ترفضهم جميعا لأنها تريد زوجا عدو الشر والشعوذة الساحرة . وتمر المهلة دون أن تعثر على من في أحلامها . ويصمم والدها الملك على محاربة القصر حتى لا يأخذ ابنته . ويصطف الجنود بأسلحتهم وتحبس الأميرة في حجرة داخل سلسلة من الحجرات المتداخلة . ولكن يأتي الشر ويسلط أشعة القوة السحرية قبالة الجنود . وعن طريق القصر تصعد الفتاة إلى القصر وتذوب فيه . ويستغرق الفيلم ٢٠ دقيقة وقدم عن طريق فن العرائس الجميل بإمكانياته الرائعة . وهو وإن كان لم يقدم للطفل نهاية سعيدة فإنه أكد على دور الفتاة التى كانت حائرة في رفضها للواقع المكاذب بكل صور الشقاء والخداع التى صادفتها في حياتها حتى لو كان أمامها أن تعيش بلا زواج مطلقا . أو كما جاء في الأسطورة أن تذوب في القصر .

أما في فيلم البالون فيقدم المخرج طفلا صغيرا يبيع البالونات على شاطئ البحر . وعندما يعبث به … على الشاطئ . وحوله مجموعة من البالونات . وبالصدفة تمر عروسان في طريقهما لحفل الزفاف . فيأخذ الشاب كل البالونات هدية لعروسه ويترك للطفل ثمنها . وعندما ينصرف يجد أنه لم يملك بالونا واحدا يجري وراء العروسين ويرى البالونات وهى تطير على … ويخرج العروسان ويعطيه بالونا واحدا . فيحتضنها الطفل ويجري سعيدا بها … بكل النقود التى معه . فليست النقود كل شيء ولا هي مصدر السعادة الوحيد .

وهناك كثير من الأفلام الممتعة التى عرضت خلال المهرجان من مختلف بلاد العالم وإن كان المجال لا يتسع لعرضها جميعا . ولكنها تجارب كلها ناجحة يمكن الاستفادة من فكرتها في بداية عمل أفلام مصرية للأطفال مثل «هارب القميص» وهو حائز على جائزة كان وتشيكوسلوفاكيا … و «المرسى الذى …» وهو حائز على جائزة الأوسكار للطفل . و «رحلة …» حائز على جوائز عالمية . و «الخروف» حائز على جوائز عالمية .

٣٠ ساعة عرائس في العلب

ولا تقل دراما الطفل على المسرح أهمية عن سينما الأطفال . فإذا كان يتلقى من خلال الفيلم معلومة أو قيمة جديدة فإنه في المسرح يشارك في الأحداث وينفعل بما يشاهده ويتأثر به تأثرا مباشرا سريعا وقويا . وهو أيضا وسيلة فعالة لاستغلال خيال الطفل وصقل شخصيته .

لجميع الأطفال كما يقول علماء النفس . لديهم القدرة على تكوين مفاهيم ذهنية وصور لما ليس موجودا . وهذا الخيال يمكن أن يصبح مصيبة . ولكن عدم تحوله إلى مصيبة يتوقف على ما يمنحه الطفل نتيجة لهذا الخيال . ولذلك فدراما الطفل أصبحت الآن في جميع أنحاء العالم تهدف إلى تدريب الطفل للتعبير عن نفسه وتنمية خياله والسيطرة على حركته وتنسيق جسده ونطق … ويتعرف كيف يحس ويحب ويفكر وكيف يتعامل مع الآخرين وكيف يسيطر على رغباته . ومسرح الأطفال كغيره من أشكال الفنون الأخرى له نظريات ومفاهيم مختلفة . فهناك كما … تكون للأطفال وأطفال تكون للأطفال أو مزيج من الكبار والصغار . وآخر هذه النظريات الدراما التلقائية .

ويرى البعض أن المسرح التقليدي هو مسرح الكبير … ولا مانع من اشتراك الطفل في بعض أدوار المسرحية على ألا يعطى دور البطولة . فقد أثبتت الدراسات النفسية أن الطفل النجم يتعرض عندما يكبر لصدمات نفسية . فهو … تحت الأضواء كطفل لا يجد حوله أى اهتمام حين يكبر إلا إذا … مثلا بعد ذلك . وهناك شبه إجماع على تقديم مسرح الطفل عن طريق فرق متخصصة . وكانت هناك تجربة عند بداية مسرح الطفل في مصر سنة ١٩٧٨ حيث شارك نور الشريف وسهير حمدى في تقديم مسرحيات الأطفال .

وخلال المؤتمر الأول للتربية الفنية الذى عقد بالإسكندرية . قدم بحث حول دور الدراما في التنمية الخيالية للطفل . تحدث فيه كاتب البحث عن الدراما التلقائية للأطفال التى كتب عنها عديد من الكتاب أهمهم بيترسلاد … ووصف إحدى الحفلات التى شاهدها أخيرا في لندن . وقد ظهر على خشبة المسرح المخرج ومعه مجموعة من الأطفال تتراوح أعمارهم بين ٨ و ١٢ سنة . وبدأ سلسلة من التوجيهات فطلب منهم أن يغمضوا عيونهم ويركزوا على الأصوات التى سيؤديها . وبدأ بأصوات في المسرح كفتح … ثم أغلقه ثم صوت سيارة . وطلب منهم أن يحكوا لبعضهم ما سمعوه . ثم طلب منهم أن ينسوا جميع الأصوات وينصتوا إلى أنفسهم فقط . وبعد ذلك طلب منهم أن يقفوا باسترخاء ويتخيلوا أنفسهم … تحت الشمس . ثم … والغرض الأساسى من هذه التمرينات تنمية قوة الملاحظة لدى الأطفال وتدريبهم على السيطرة على أجسامهم .

وهذا النوع من الدراما كما رأينا لا يحتاج إلا لإنسان مثقف وتربوى يستطيع أن يقود ويدرب مجموعة من الأطفال . وأبسط … الامكانيات .

في الحقيقة بالرغم من عديد وجود سينما للأطفال في مصر ووجود فراغ كبير في دراما الأطفال . فإننا لا نكاد نسمع عن مسرحية مدرسية إلا في المدارس الأجنبية فقط وبعض المدارس الثانوية التى تشترك بها في المسابقات الفنية بين المناطق التعليمية . أما في غير ذلك فلا يوجد . حتى مسرح الطفل يواجه مشاكل عديدة أهمها مشكلة النص . وعرضت منذ عامين على مسرح الطفل مسرحية بعنوان «حكاية …» من إخراج الأستاذ … حاول المخرج استخدام كل امكانيات المسرح من ديكور وإضاءة وعرض خلق لإيجاد … ويمكانه تتناسب مع طبيعة الموضوع الذى يتناوله ومساحة المسرح الصغير . وخرجت المسرحية في الحقيقة في شكل رائع .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن أفضل ما يقدم للأطفال الآن يعرض على مسرح العرائس . ولكن كما يقول الأستاذ صلاح السقا مدير مسرح العرائس فإن جمهور المسرح هو الطفل القادر على أن يصل إلى المسرح ويدفع ثمن التذكرة . وقد حاولت التغلب على هذه المشكلة بالاتصال بالمدارس ودعوتهم لزيارة المسرح . تلك التجربة مر عليها أكثر من ٤ سنوات حيث نقدم كل يوم حفلة صباحية لأطفال المدارس . ولكن رغم هذا الحب الشديد من الأطفال والكبار على السواء . فإن التليفزيون لا يقدم أى عروض لمسرح العرائس إلا الليلة الكبيرة التى نجحت نجاحا جماهيريا كبيرا عند عرضها بالتليفزيون بالرغم من أن هناك ٣٠ ساعة مسجلة من عروض مسرح العرائس بالإضافة إلى ١٥ ساعة أخرى لمسرحيات على مستوى عال من الجودة الفنية وموضوعاتها منتقاة بعناية من التراث مثل «حلم شهاب الدين» و «حكاية سقا» وبعضها من أدب الطفل العالمى مثل «مغامرة …» من الأدب الألمانى و «٨٠ يوما حول العالم» من الأدب الفرنسى .

الغريب أن التليفزيون يقدم حوالى ٩٠ ساعات عرائس كل شهر من خلال برامج الأطفال . ولكن للأسف لم تحظ شخصيات هذه الفقرات باهتمام الأطفال مثلما أحبوا الليلة الكبير ورددوها . وهذا ما يدعونا إلى التساؤل . لماذا … عمل مع بداية التليفزيون قسم للعرائس أسعد آلاف المشاهدين من الأطفال في الستينات ؟

توجهنا بهذا السؤال إلى الأستاذ محمود رحمى فنان العرائس ولكنه لم يجب . وكل ما قاله : إنه اضطر إلى أن يكتب بنفسه تمثيلية عرائس للتليفزيون استغرقت كتابتها عاما ونصف عام ويقوم بإنتاجها بنفسه بالاشتراك مع شركة القاهرة للصوتيات والمرئيات لكى تخرج في شكل جيد . وسوف تقدم للأطفال خلال شهر رمضان في ٣٠ حلقة مدة كل منها نصف ساعة . وفي خلال هذا العمل حاول أن يقدم للطفل ما تمنى أن تقدمه له برامج الأطفال . فالحدوتة بطلها فنان عرائس يعيش في الاستديو عالمه الخاص مع العرائس . ويتفق مع العروسة نونا أن تتركه يعمل بدون إزعاج . وفي أن تتكلم … لها حدوتة بشرط أن يكون الحديث بينهما باللغة العربية الفصحى كمحاولة لتعويد الطفل على سماع اللغة العربية السليمة التى أصبحت تعاني من الاغتراب بعد أن طغت اللهجة العامية حتى على لغة التخاطب في المدارس .

• • •

وأخيرا . كل الحب للطفل عسى أن يجد مكانة مناسبة من اهتمام الدولة والهيئات المسئولة عن تربيته وثقافته . ونتمنى ألا يفوتنا قطار العام الدولى للطفل . قبل أن نخطو خطوات واسعة في مجال سينما الطفل . ومسرح الطفل ليصبح الطفل المصرى كغيره من أطفال العالم المتحضر .

□